(٢)

المأساة، ومعركة الطموح والتحدي

- الطفل الضرير .
- الغلام الموهوب .
- الشاب الطامح .
- ومضات كاشفة .
- موت الأب .
- إحدى الراحتين.

obeikandl.com

الطفل الضرير

« قضِيَ عليَّ وأنا ابن أربع ،
لا أُفرقُ بين البازلِ والرُّبع »
أبو العلاء
(من رسالة إلى داعي الدعاة)

كان من حقٍّ مثله ، أن تتهيأ له من ميراثه وبيته ظروف مسعفة على النبوغ ، وأن يبدأ منذ الفطام خطوته الأُولى على الطريق التي سار عليها أبوه وأجداده كابرا عن كابر .

ولعل مخايل النجابة لاحت عليه في طفولته الباكرة فأرهفت فيه ميراث الطموح . لكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الرهيبة من قبل أن تستقيم خطوته على درب الوجود :

اعتل في سنته الرابعة علة الجُدري ، فما أبل منها إلا بعد أن شوَّهت وجهَه بندوب لا بُرء منها ، وذهبت ببصره مُسدِلةً بينه وبين الدنيا

حجابا كثيفا حالك السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر .

من ذلك الحادث الفاجع ، تبدأ قصة أبي العلاء مع الدنيا ....

ومن مؤرخيه من قال إنه تلقى الصدمة في سنته الثالثة . ذكر ذلك « الصفدي » في (نكت الهميان) و « ابن حجر » في (لسان الميزان) .

لكن أبا العلاء يصدقنا الخبر إذ يملي في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة [1] :

« قضي عليَّ وأنا ابن أربع ، لا أُفرق بين البازلِ والرُّبَع » .

وليس بمستبعد أن يكون قد جُدِر في أخريات سنته الثالثة ، ثم عمي في أوائل الرابعة .

****

وكان كل ما بقي له من ذكريات عهده بنور العين ، لون الثوب الأحمر الذي ألبسوه إياه في علته . قال :

« لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأني أُلبِستُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالعصفر ؛ لا أعقِل غير ذلك ... » .

وبقي لنا من ملامح صورته بعد المحنة ، ما نقله « ابن العديم » حكاية عن « ابن منقذ » أنه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ، ووصفه فقال :

« وهو صبي دميم الخِلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدري ، كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا » .

---

(١) مع (رسائل أبي العلاء) تحقيق مرجليوث .

كما نقل من قول « عبد الله بن الوليد المعري » وقد رأى أبا العلاء شيخا :

« وكأني أنظر إليه الساعةَ وإلى عينيه : إحداهما نادرة ـ نادَّة ـ والأُخرى غائرة جدا . وهو مُجدَّر الوجه نحيف الجسم » [1] .

تكفي هذه المرويات لنتمثله في صباه الباكر حين بدأ يخطو على درب الحياة وبينه وبين الدنيا ذلك الحجاب الأصم من ظلام دامس لا أمل في انحساره ...

****

في ذلك الحين ، لم يكن الصبي قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأساة . وقد درَّبه أهله في طفولته على مواجهة عالَم الظلام ، وراضوه عليه حتى خيِّل إليهم وإليه أنه أَلِفَه واعتاده ....

غير أنه لن يلبث أن يدرك مع نضج السن والوعي ، أن مأساة حياته كلها بدأت بتلك الآفة التي قضت عليه وهو ابن أربع ، كما قال في إحدى رسائل شيخوخته العالية . وسوف نسمعه في الشطر الثاني من حياته ، يطيل الحديث عن محنة العَمَى ، وعن الظلام الدامس الذي لا ينجاب ، والليل الطويل الذي لا ينجلي . ويعدُّ من مزايا ضجعة القبر أن تأمن العين المنطفئة في الثرى ، من مصاب عَمى أو آفة رمَد.

وسيأتي دارسون من بعده ، فيتوهمون أنه ريض على محنته ورضي بقدره.

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥١٤/تعريف .

ويـأْتي صوته الفاجع من وراء القرون :

إذا طُفئت في الثرى أَعيــنُ

فقد أَمِنتْ من عمىً أو رمَــدْ

****

الغلام الموهوب

« ما سمعت شيئا إلا حفظته ،
وما حفظت شيئا ونسيته »
أبو العلاء
(في إحدى رسائله)

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه إلى عالَمٍ يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام عينيه المنطفئتين :

قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ « ممن يُسار إليهم في القراءات ».

وسمع الحديث من أبيه عبد الله ، وجدِّه سليمان ، وجدّته « أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل المعري » وأخيه الأكبر أبي المجد محمد . وسمعه كذلك عن : أبي زكريا يحيى بن مسعر المعري ، وأبي الفرج عبد الصمد الضرير الحمصي ، والقاضي أبي عمرو عثمان الطرسوسي ، وغيرهم من محدثي المعرة وحلب في زمانه .

وتلقى علوم اللغة والنحو بمعرة النعمان ، على أبيه ، وعلي أبي بكر بن مسعود النحوي ، وجماعة من أصحاب « ابن خالويه » إمام العربية في الشام .

وظهر من ذكائه ونجابته ، ما جعل أباه يمضي به إلى « حلب » عاصمة الإقليم – وفيها أخواله بنو سبيكة – حيث تلقى النحو على « محمد ابن عبد الله بن سعد النحوي »[1] .

وكان الظن الغالب علينا معشر الدارسين ، أن أبا العلاء بدأ من ذلك العهد ، اتصاله بالأدب ومعرفته بشعر المتنبي ، إذ كان شيخه « ابن سعد » راوية أبي الطيب .

لكن خبراً نقله « ابن العديم » يجعلنا نتردد فيما غلب علينا من ظن : خلاصة الخبر أن « ابن سعد » كان يروي بمسمع من أبي العلاء – وقد اجتمع به في حلب ، وهو صغير – قصيدة المتنبي الدالية :

أزائرٌ ، يا خيالُ ، أم عائـدْ أم عند مولاكَ أنني راقدْ

ولم تكن القصيدة مما قرأه ابن سعد على الشاعر أبي الطيب المتنبي ، بل كانت مما أنفذه إليه . فلما وصل ابن سعد في قراءته إلى البيت :

أو مَوْضعاً في فنـاءِ ناحيةٍ تحمل في التاج هامةَ العاقِدْ

ردَّه عليه أبو العلاء الصبي ، وقال مصححا :

« أو مُوضِعاً في فتانِ ناجيةٍ »[2]

---

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٥١٤ .

(٢) أوضع في السير فهو موضع : أسرع . والفتان : غشاء من أدم يوضع فوق الرحل . والناجية : الناقة السريعة .

فلم يقبل ذلك « ابن سعد » ومضى إلى نسخة عراقية من « ديوان المتنبي » فوجد القولَ ما قاله أبو العلاء [1] .

فهل كان الصبي قد اتصل بشعر المتنبي قبل مجيئه إلى حلب واتصاله بابن سعدٍ راوية الشاعر ؟

أو كان ما قاله في الشطر الأول من البيت ، لمحة وجدانٍ ذكي تذكرنا بمثلها من شاعرنا الجاهلي الشاب « طرفة بن العبد » حين سمع وهو صبي يلعب مع الغلمان ، بيت « المتلمس » :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره

بِناجٍ عليــه الصيعريــةُ مكــدم

فصاح الصبي « طرفة » : « استنوق الجمل » لأن الصيعرية سِمةٌ في عنق الناقة ، لا البعير .

وسواء أكان أبو العلاء قد أنكر رواية شيخه « ابن سعد» لبيت المتنبي ، عن ذوقٍ شعري مرهف ؛ أو كان قد سمعه على الرواية الصحيحة فيما سمع من أمالٍ لغوية وهو يقرأ اللغة والنحو بمعرة النعمان ، على جماعة من أصحاب « ابن خالويه » ،

فالخبر على أي الحالين ، يؤرخ لنا اتصال أبي العلاء في تلك الفترة من صباه الغض المتفتح لاستقبال المؤثرات الذوقية ، براوية المتنبي « ابن سعد »، ولم يكن هذا الاتصال سريعا عابرا ، بل كان تلمذة علمية وأدبية ، لعلنا نلتمس منها ما قد يفسر لنا الذي طالما حيَّرنا من إعجاب

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥١٥/ من تعريف القدماء .

أبي العلاء بالمتنبي ، على ما بين الرجلين من بَونٍ شاسع : في الخلقية والطبع ، وفي الشخصية والمنهج ، وفي الموقف والسلوك....

****

واستأنف الغلام سيره يطلب العلم . وفي خبرٍ أنه رحل إلى « طرابلس الشام » وكان بها خزائن كتب موقوفة ، وأنه في رحلته « مر باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له عِلمٌ بأقوال الفلاسفة ، سمع أبو العلاء بعضَ كلامه فحصل له به شكوك » يرد إليها بعضُ متهميه ما رابهم من أمر عقيدته .

وتتناقض الأخبار المروية عن تلك الرحلة :

فابن كثير لا يشير إلى مكانها ، ولا يذكرها بصيغة توثيق ، بل يكتفي بما نصه :

« ويقال إنه اجتمع براهب في بعض الصوامع ، في مجيئه من بعض السواحل ، آواه الليلَ عنده فشككه في دين الإسلام »[1] .

وابن العديم – وهو عندنا أولى بالثقة – ينفي الرحلة إلى طرابلس جملة ، ويردها إلى اشتباه برحلة أبي العلاء إلى دار العلم ببغداد ، ويستند في نفيها إلى دليل تاريخي لا مطعن فيه : أنْ لم تكن في طرابلس الشام دارُ علمٍ على أيام أبي العلاء :

ونص عبارته :

« وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : حوادث سنة ٤٤٩ هـ – وفيها وفاة أبي العلاء .

للنظر في كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد . ولم يكن بطرابلس دارُ علمٍ في أيام أبي العلاء . وإنما جَدَّدَ دارَ العلم بها « القاضي جلالُ الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار » في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة – بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة أبي العلاء – ووقَف ابن عمار بها من تصانيف أبي العلاء : الصاهلَ والشاحج ، والسجعَ السلطاني ، والفصولَ والغايات ، والسادنَ ، وإقليد الغايات ، ورسالةَ الإغريض »[1] .

وكانت كلمة « ابن العديم » بحيث تفصل في أمرِ هذه الرحلة المشكوك فيها ، لولا أن بعض متأخري المصنفين ، ممن سيطرت عليهم فكرة اتهام عقيدة أبي العلاء ، أراحهم أن يأخذوا من رحلة طرابلس والمبيت في صومعة الراهب ، مفتاح السر لما وَهِموه من شك أبي العلاء .

وضاعت كلمة « ابن العديم » الكاشفة عن موضع اللبس والاختلاط في خبر الرحلة ، الشاهدة على نفيها بأن طرابلس لم يكن فيها دارُ علم على أيام أبي العلاء ، ولثلاث وعشرين سنة بعد وفاته !

ونُسِي معها أن « ابن كثير » ساق الخبر بكلمة « ويقال » النافية عنده للتثبت والتحقق .

ثم جاء من بعد أولئك الذين تعلقوا بخبر الرحلة في قضية اتهام عقيدة أبي العلاء ، نفر من المحدثين أعجبتهم حكاية الراهب والصومعة ، فلم يقفوا بها عند اتهام العقيدة فحسب ، بل أضافوا إليه – من جديد

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٥٧/ تعريف .

ما اكتشفوه ـ بدعةَ « يونانية أبي العلاء » لمجرد أن راهبا مجهولا قيل إنه آواه الليلَ في صومعته ، وما دام قد شككه في الإسلام ، فلا بد أن يكون كذلك قد وصله بالفكر اليوناني وفتح له كنوزه التي صاغت عبقريته !!

ومن ثم راحوا يلتقطون بضعة ألفاظ وأفكار ، ويوجهونها إلى اليونانية توجيها بالغ الشطط والاعتساف ، يراه فقهاء النصوص من دارسي أبي العلاء ، عجبا من العجب !

وما هان منطق العقيدة ، ليكون اجتماعٌ براهب في رحلة عابرة خالطها الوهم واللبسُ ، يهز عقيدة شاب نشأ في بيتٍ معرق في العلم والدين ، ورسخت جذوره في أعمق تربة إسلامية . وفي ديار الإسلام كثير من الصوامع والأديرة ما نعلم أن رهبانها فتنوا عن الإسلام مَن هو دون أبي العلاء رسوخا فيه وعلما به .

وأخشى ما أخشاه أن يكون وراء إصرار بعض المُحدَثين على تأثر عقيدة أبي العلاء براهب الصومعة ، ما يَلفتون إليه بلباقة ، من مرور « محمد بن عبد الله » ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأحد الأديرة في رحلة صِباه إلى الشام مع عمه « أبي طالب » ولقائه في الدير بالراهب « بَحيرا » قبل المبعث .....

ولا هانت قضية الفكر ، كذلك ، بحيث يكفي أن يمر أحدنا في رحلةٍ له براهبٍ يؤويه ، فيصله بالفكر اليوناني أو غير اليوناني . وقد نعلم أن من يقول بيونانية أبي العلاء ، يرفض بإصرار عجيب أن

يعترف لأي مفكرٍ إسلامي معاصر لم يدرس في مدرسة أجنبية ، بالاتصال بالفكر الغربي ، وإن أقام في أوروبا سنين عددا ، وأتقن من لغاتها ما يصله بآثار الصفوة من مفكريها !

وفي هذا أيضا ، أخشى أن يكون القائلون بيونانية أبي العلاء ، مأخوذين من حيث يدرون أو لا يدرون ، بفتنة اليونانية والغربية بوجه عام ، فليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكرٍ إسلامي أو أديب عربي ، دون أن تمت بسبب أو بآخر إلى أصول أجنبية : يونانية أو رومية .

من ثم راحوا ينبشون في مجاهل الماضي عن ميراث وهمي أو نسب بعيد في الروم واليونان والعجم ، لشعراء ومفكرين لا يعرف التاريخ لهم منبتا في غير بيئتهم العربية الإسلامية .

وفي أخذة الفتنة ، غاب عنهم ما لا يغيب عن أي مثقف واع من شهادة التاريخ الثابتة : أقوال الفلاسفة لم تكن حِكْراً على رهبان الأديرة ، فلا سبيل لأبي العلاء إليها إلا أن « يجتمع في مجيئه من بعض السواحل براهب في صومعته » .

قبل مولد أبي العلاء بقرنين وأكثر ، كان الفكر اليوناني قد تم تعريبه . وكانت أقوال الفلاسفة قد تم نقلها وهَضَمَ منها الفكرُ الإسلامي ما صاغه بمنطقه .

وعن طريق المترجمين العرب ، لا عن طريق رهبان الصوامع والأديرة ، عرفت أوروبا في العصر الوسيط تراث الفكر اليوناني ، ونقلت أقوال فلاسفته الأعلام !

وما أبو العلاء ، وسائر مفكري الإسلام وأدباء العربية ، سوى عطاء بيئتهم الإسلامية بكل أصالتها وخصبها ، وما تلقت من روافد التراث الفكري القديم ، اليوناني وغير اليوناني ، وهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ...

****

ونستأنف السير مع أبي العلاء في صباه :

في خبرٍ آخر ، أنه رحل إلى « أنطاكية » وتردد إلى خزانة كتبها يحفظ ما فيها . قاله « ابن منقذ » فيما نقل « ابن العديم » :

« كان بأنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا عَلَويّاً . فجلست يوما إليه فقال : « قد خبأْتُ لكَ غريبة ظريفة لم يُسمَع بمثلها ... صبي دون البلوغ ضرير يتردد إليَّ ، وقد حَفَّظتُه في أيام قلائل عدةَ كتبٍ ، وذلك لأنني أقرأُ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ؛ ثم يتلو عليَّ ما قد سمعه كأنه من محفوظة » .

قلت : « فلعله يكون يحفظ ذلك ؟ » .

قال : « سبحان الله ! كلُّ كتابٍ في الدنيا يكون محفوظا له ؟ وإن كان ذلك كذلك ، فهو أعظم » « ثم حضر المشارُ إليه ، وهو صبي دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أثر الجدري ، كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا ، وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجلٌ طوال من الرجال أحسبه يقرب من نسبه ... فاخترت شيئا وقرأته على الصبي وهو يموج ويستزيد ، فإذا مرَّ به شيء يحتاج إلى تقريره في خاطره يقول : « أعِدْ

هذا » فأردّه عليه مرة واحدة . حتى انتهيت إلى ما يزيد على كراسة ، فتلا عليَّ ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا حتى انتهى إلى حيث وقفتُ . فكاد عقلي يذهب لما رأيت منه . وسألت عنه فقيل لي : هذا أبو العلاء التنوخي ، من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء »[1].

وفي هذه الحكاية أيضا ، وهمٌ لفت إليه « ابنُ العديم » : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدي الروم من سنة ٣٥٨ قبل مولد أبي العلاء بخمس سنين ، إلى أن فتحها « سليمان بن قطامش » سنة ٤٧٧ هـ ، بعد وفاة أبي العلاء بثمانٍ وعشرين سنة [2] .

لكنها مع هذا الوهم ، لا تفقد دلالتها على ما شاع وذاع من ذكاء الصبي الضرير وعجيب حفظه ، كما لم تفقد رحلة طرابلس والمبيت بصومعة الراهب ، بالوهم والتوهين ، دلالتَها على ما نشب في فكر بعض المصنفين من اتهامٍ لعقيدة أبي العلاء .

كان أبو العلاء في صباه ، أعجوبة زمانٍ « لم يُسمع بمثلها قط » و « ابن العديم » الذي وهن خبر خزانة أنطاكية ، قد عقد في كتابه (الإنصاف والتحري ، في دفع الظلم والتجرِّي ، عن أبي العلاء المعري) فصلاً خصباً « في ذكر ذكاء أبي العلاء وفطنته ، وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » أورد فيه عجائب وغرائب ، إن اتهمناها بالوضع كانت أعمق دلالة على رأي معاصريه فيه ، وانبهارهم بما ظهر

(١ ، ٢) الإنصاف والتحري : ٥٥٤ / تعريف .

من نجابته وفطنته وقوة حافظته ، مذ كان صبيا دون البلوغ .

****

وتتظاهر الأخبار والمرويات على صدق هذه الدلالة ، كمثل الحكاية التي ذكرها بعض مؤرخيه ، وخلاصتها أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من أكابرهم إلى معرة النعمان لينظروه ويمتحنوه . قال لهم : هل لكم في المقافاة بالشعر ؟

فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، فينشد أبو العلاء الصبي من حفظه بيتا على قافيته . حتى نفد حفظهم فقال :

ـ أعجزتم أن يَعمل الواحدُ منكم بيتا عند الحاجة إليه ، على القافية التي يريد ؟

قالوا : فافعل أنت ذلك .

فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ، أجابه من نظمه على قافية البيت « حتى قطعهم جميعا »[1] .

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ٤٥٨/ تعريف .

الشابُ الطامح

لِيَ الشرفُ الذي يَطأُ الثريــا
مع الفضل الذي بَهر العبادا
أَفُل نوائب الأيــام وحــدي
إذا جمعتْ كتائبَهــا احتشادا

أبو العلاء
(سقط الزند)

من ذلك العهد المبكر ، في الصبا الغضِّ ، اهتدى أبو العلاء إلى ما حسِبَه سلاحَه في معركة الوجود ، وعرَف طريقَه على الدرب . وقد أرضاه أن يجد في موهبته الفذة عِوَضاً عما فَقَدَ ، وأن يلتمس من العلم النور الذي حجبه عنه العمى مذ كان في المهد صبيا .

وفي اعتدادٍ وعناد ، صمَّم على أن يتحدى محنته وأن يشق سبيله إلى حيث يريد ، لا يعوقه فقدُ البصر .

obeikandl.com

وبلغ المدى في مكابرته ، فرُئي في شبابه الباكر يلعب النردَ والشطرنج ، ويأخذ في فنون اللهو والجد كما يفعل لِداتُه المبصرون . ومن أقدم ما وصل إلينا من أخباره ، ما رواه معاصره « أبو منصور الثعالبي » قال :

« وكان حدثني أبو الحسن المصيصي الشاعر ، وهو ممن لقيته قديما وحديثا في مدة ثلاثين سنة ، قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسَنَ بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البُغضاء »[1]

ونقلوا ، في مثل هذه الكلمة لأبي العلاء ، أنه قال :

قالوا : العمى منظر قبيـــح ... قلت : بفقدانكم يهونُ

والله مـا في الـوجود شيء ... تأْسَى عـلى فقدِه العيونُ

والبيتان مما لم يُروَ في ديوانيه : (سقط الزند ، ولزوم ما لا يلزم)[2]. وفي النفسِ شيءٌ من نسبتهما إلى أبي العلاء ، فما كان مثله ليعتد في محنة العمى بقبح منظر ، ولا كان بحيث لا يأْسى على حرمانه من رؤية أمه الغالية وسائر أهله الأَحباب .

فهل نظمهما غيرُه متأثرا بالمروي عن أبي العلاء ، في حديث المصيصي الشاعر إلى أبي منصور الثعالبي ؟

مجرد احتمال لا أملك أن أعطيه صفة الرجحان ، فضلا عن أن

---

(١) الثعالبي : تتمة اليتيمة ، ١/٩ ط طهران ١٣٥٣ هـ .

(٢) نقلهما أبو العباس المكي في (نزهة الجليس) – أنظر (التعريف) .

أقطع فيه بيقين ...

ولدينا على أي حال ، من شعر شبابه في (سقط الزند) شاهد صادق على ما كان من بُعد هِمَّته وطموحه ، وعجيب مكابرته وعنيد إصراره على اقتحام معركة الوجود ...

وأُشير هنا إلى قصيدته اللامية المشهورة :

ألا في سبيلِ المجد ما أنا فاعــل
عفاف وإقدام وحزم ونائـــلُ

وفيها يقول مفاخرا متحديا :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
بإطفاء شمسٍ ضوؤها متكامــلُ
يهمُّ الليالي بعضُ ما أنــا مضمر
ويُثقل رضوى دون ما أنا حاملُ
وإني وإن كنت الأخيرَ زمانــه
لآتٍ بما لم تستطعــه الأوائــلُ
وأغدو ولو أن الصباح صوارمٌ
وأسرِي ولو أن الظلام جحافلُ
وإن كان في لِبس الفتى شرف له
فما السيف إلا غمدُه والحمائلُ
ولي منطق لم يرض لي كُنْهَ منزلي
على أنني بين السماكين نــازلُ

لدى موطنٍ يشتاقه كل سيدٍ
ويقصر عن إدراكه المتناولُ
ينافِسُ يومي فيَّ أمسي تشرُّفاً
وتحسد أسحاري عليَّ الأصائلُ

هكذا يبدو أبو العلاء الفتى ، وكأن الدنيا لا تتسع له ، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه . وهو يلقانا في تلك المرحلة من شبابه مشغولا بخصوم له لا نعرفهم ، وأغلب الظن أن يكون من بين شباب حلب الطامحين ، من أبناء جيله ، مَن ضاقوا بما استأثر به هذا الضرير من نباهة وشهرة ، فحاولوا الغضَّ من قدره ليفسح أمامهم فرصة الظهور . وأبو العلاء يتحداهم بمثل ما نقلنا آنفا من أبياته اللامية ، ومثل قوله في (السقط) :

تعاطوا مكاني وقد فُتُّهم
فما أدركوا غيرَ لمح البصر
وقد نبحوني وما هِجتهم
كما نبح الكلبُ ضوءَ القمرْ

****

أفوقَ البدرِ يوضَع لي مهادُ
أم الجوزاء تحت يدي وِسادُ
قنعتُ فخِلتُ أن النجم دوني
وسِيان التقنُّعُ والجهادُ

رويدَك أيهـا العـاوي ورائـي
لتخبرني مـتى نطق الجمـادُ
أأخملُ والنباهـةُ فيَّ لفـظ
وأقتر والقناعـة لي عِتـادُ

****

وكم من طالبٍ أمَدي سيلقى
دُوينَ مكـانيَ السبـعَ الشِـدادا
يؤجج في شعاع الشمس نـارا
ويقدح في تلهبهـا زنـادا
ويُظهـر لي مودتـه مقـالا
ويبغضـني ضميـرا واعتقـادا
فلا وأبيكَ ما أخشى انتقاصـا
ولا وأبيكَ مـا أرجو ازديـادا
لِيَ الشرف الذي يطأُ الثريـا
مع الفضل الذي بهر العِبـادا
ولو ملأَ السُّهَى عينيـه مـني
أَبَرَّ عـلى مدى زُحَـلٍ وزادا
أَفُلُّ نوائب الأيـام وحـدي
إذا جمعتْ كتائبهـا احتشـادا
ولي نفسٌ تحـل بي الروابي
وتأبى أن تحـلَّ بيَ الوهـادا

تمد لتقبضَ القمريــن كفّــاً

وتحمل كي تبذ النجــم زادا

****

ورائــي أمــامٌ والأمــامُ وراءُ

إذا أنــا لم تُكبِرنيَ الكُبَـراءُ

بأيٍّ لسانٍ ذامـني متحامِــلٌ

عليٍّ ، وخفَقُ الريح فيَّ ثنـاءُ

تكلم بالقــول المضلــل حاسد

وكلُّ كلام الحاسدين هَــراءُ

أتمشي القوافي تحت غيرِ لوائنا

ونحــن علــى قوَّالهــا أمــراءُ

وما سلبتنا العــزَّ قط قبيلـــةٌ

ولا بــات منــا فيهــمُ أُسـراءُ

ولا سار في عرض السماوة بارق

وليس له من قومنــا خفــراءُ

****

على أنه في عنفوان ذلك التحدي الطامح ، لم يغفل عما حوله من ضلال المقاييس واختلال الموازين . مسجلاً من ذلك العهد المبكر ، إدراكه لفساد العصر ووعيه لهزل الدهر . فذلك حيث يقول في اللامية :

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً

تجاهلت حتى ظُنَّ أنيَ جاهــلُ

oberkandi.com

فواعجبا كم يَدَّعي الفضلَ ناقص
ووا أسفا كم يُظهر النقصَ فاضلُ
إذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ
وعَيَّرَ قساً بالفهاهـة باقـــلُ
وقال السُّهَى للشمس أنتِ خفية
وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ
فيا موت زرْ إن الحياة رخيصة
ويا نفسُ جِدِّي إن دهرك هازلُ

****

وبدا أن القدر أملى له حينا ، فمضى في شبيبته ملء الزهو والطموح . وواتتْه شاعريته فلم يدع غرضا من أغراض الشعر المعروفة إلى عصره إلا نظم فيه على مذهب الفحول السابقين :

مدح لغير تكسب ، وهل كان بحيث يطيق الاستجداء ولو مات من جوع ؟

وهنأ بالعرسِ والولد ، وهو الذي مضى على تصميمه ألا يتزوج ، ولا يجني على ولد ...

ورثى وهجا ، وتغزل وافتخر ،

على تفاوتٍ في مدى العناية بكل ذاك .

واتصل بالحياة العامة مبكرا ، فشُغِل بالمعارك الدائرة بين العرب المسلمين والروم ، وجاهد فيها بقصائد حماسية مطولة ، وعزف للأبطال أناشيد النصر :

مُكلَّف خَيْلِـه قَنْصَ الأَعـادي
وجاعل غابِه الأَسلَ الطـوالا
تكـاد قِسِيُّـه من غيـر رامٍ
تُمكِّـنُ في قلوبهـم النبـالا
تكـاد سيوفه من غيـر سَلٍّ
تجـدُّ إلى رقابهـم انسلالا
إذا سقت السماء الأَرضَ سُحْبا
سقاها من صوارمـه سجـالا
ويضحي والحديـدُ عليـه شاكٍ
وتكفيـه مهابتُـه النـزالا
ولولا ما بسيفِـك من نحـولٍ
لقلنا أَظهـر الكمـدَ انتحالا
يذيب الرعبُ منه كـلَّ عضبٍ
فلـولا الغمـدُ يمسكُـه لَسالا
حفظتَ المسلمين وقـد توالـتْ
سحائبُ تحمل النوب الثقـالا
بوقتٍ لا يطيق الليـثُ فيـه
مساورةً ، ولا السِّيـدُ اختتـالا

****

أيوعدُنـا بالروم نـاس وإنمـا
همُ النبتُ ، والبيضُ الرقاقُ سوامُ

كأنْ لم يكن بين المخاضِ وحارم
كتائبُ يُشجين الفَلا وخِيـــامُ
ولم يجلبوها من ورا مَلَطيـــة
تَصَدَّعُ أجبالٌ بهـا وإكـــامُ
بيومٍ كأَن الشمس فيه خريدة
عليهـا من النقع الأَجَمِّ لِثـامُ
كأنهمُ سَكرَى أُريـق عليهـمُ
بقايـا كئوسٍ ملؤهـن مـدامُ
فأَضحوا حديثا كالمنام ، وما انقضى
فسِيَّانِ فيـه يقظـة ومنـــامُ
. . . . . .
فلا قول إلا الضرب والطعن عندنا
ولا رُسلَ إلا ذابـــل وحسامُ
فإن عُدتَ فالمجروحُ توسَى جِراحُه
وإن لم تَعُد متْنا ونحن كـرامُ
فلسنا وإن كـان البقاء مُحبَّبا
بأَول من أَخنى عليـه حِمـامُ
. . . . . .
فلما تجلى الأَمر قالـوا تَمنيـاً
ألا ليت أَنا في الترابِ رِمـامُ

وراموا التي كـانت لهم وإليهمُ
وقد صعُبتْ حالٌ وعَـزَّ مـرامُ
وظنوك ممن يطفىء البـردُ ناره
إذا طلعت عند الغروب جهـامُ
وأنـك تَثنيهـا قبالـةَ جِلِّـقٍ
متى لاح برق واستقـل غمـامُ
وقالوا شهورٌ ينقضيـن بغـزوة
وما علِموا أن القفـولَ حـرامُ

****

وأراني انصرفت عمدا عن ملابسات هذه القصائد ، فلم أتعلق بتحديد الوقائع وتعيين أَبطالها ، إذ ليس ما يشغلني هنا إلا الشاعر الشاب الذي أخذ في فنون الجد ، وخاض مع قومه معارك الصراع بين الإسلام والصليبية ، مجاهدا بكلمته حين عز عليه أن يجاهد بنفسه .

ولعلي في حرصي هنا على ألا أشغل عن الشاعر ، منفعلة بموقف مصنفي المنتخبات الشعرية ودارسي تراثنا الأدبي ، من هذه الحماسيات العلائية وأمثالها من آثاره : طُوِيت عن أجيالٍ منا فما لفتنا إليها لافت ، إلا أن يمر بنا بيت منها في شواهد النحاة . أعني بيته في سيف الفارس البطل :

يذيب الرعبُ منه كلَّ عضب
فلولا الغِمـدُ يمسكـه لَسَـالا

****

وكأنْ ليس في رؤاه الشعرية وصوره الفنية ، ما يصلح مادة لدراسة نقدية ، إن لم تساعد على تصحيح فهمنا لتراثنا الأدبي ، فليس يخطئها أن تصحح فهمنا لشخصية أديب العربية وعالمه النفسي ...

****

ومن شعر شبابه ، وصل إلينا مع حماسياته وقصائد جِدِّه ، ما يشهد بأنه كان يسرف كذلك على نفسه في أخذها بالتفتح للدنيا والإقبال على الحياة ، ويفرض عليها أن تعاني فنون اللهو والطرب ، إلى جانب ما تعلقت به من فنون الجد ، وما شغلها واستهواها من طلب العلم والمجد . في (سقط الزند) ديوانه الأول ، نسمعه يشدو بذكريات ليلة لهو تعطينا رؤياه الشعرية :

رُبَّ ليلٍ كأنه الصبح في الحســـــنِ وإن كان أسود الطيلسانِ
قد ركضْنا فيه إلى اللهو حتى وقف النجمُ وِقفــة الحيرانِ
وكأني ما قلتُ والبدرُ طفــل وشبابُ الظلام في العنفوانِ :
ليلتي هذه عروس من الزنْـــــج عليها قلائد مــن جُمــانِ
هرب النوم من جفوني فيهــا هربَ الأَمنِ من فؤاد الجبانِ
وكأن الهلال يهوى الثريــا فهمــا للوداع معتنقـــانِ
وسُهيلٌ كوجنة الحب في اللو نِ ، وقلبِ المحب في الخفقانِ
يُسرع اللمح في احمرارٍ كما تُسرع في اللمح مقلــةُ الغضبانِ
ثم شاب الدجى فخاف من الهَجْـــرِ فغطَّى المشيب بالزعفرانِ

ولا يخطئنا فيها حِسُّ التحدي ، بهذه الصور المرئية التي لا سبيل لمثله إلى إدراكها بالبصَر المغلَق .

كما لا يخطئنا فيها إحساسه المرهف بسواد الظلمة في : أسود الطيلسان ، وعروس من الزنج ، وعنفوان شباب الظلام . وتعلقه بذكرى اللون الأحمر الذي وعاه منذ ألبسوه في علة الجدري ، الثوبَ المصبوغ بالزعْفران ، لم يعقل غيره ... فصبغَ به الدجى حين شاب ، خوفا من هجر ليلة اللهو وانصرامِها !

وتكاد هذه الملاحظ ، تميز ما في ديوانه من شعر الوصف وصور البيان فيما يُعرف في المصطلح بالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز ... وهي جميعا من الرؤى الشعرية التي لا يهون إغفالها بعد الذي شاع من عقم الخيال الشعري عند العرب ، وتقيد القصيدة العربية في أغلال « عمود الشعر » التقليدي المشهور [1] .

وفي (سقط الزند) أغانٍ للحب ، شدا فيها أبو العلاء بغزليات تذوب رقة وشجوا ووجدا . ومنها ما يستأثر بالقصائد كاملات ، مما ينفي أن يكون قد تغزل على المشهور من نهج القصيدة العربية ، أو عمودها ، في الاستهلال بالغزل وبكاء الديار ، جذبا لاهتمام الممدوح !

فهل أحب أبو العلاء ؟

لا نعلم من أخبار أبي العلاء ، ما ينم عن حبه لامرأة ما . وليس في آثاره إشارة من قرب أو بعد ، إلى أنه عانى التجربة حسيا في الواقع المادي .

ونقول مع ذلك إن شعره في الغزل معبر عن معاناة وجدانية صادقة

---

(١) اقرأ فيه مثلا ، كتاب شاعرنا أبي القاسم الشابي (الخيال الشعري عند العرب) مع تعليقي عليه في (قيم جديدة للأدب العربي) ط المعارف ١٩٧٠ ومعهد الدراسات العربية ١٩٦٧ .

لظمإٍ إلى الحب ، وقد أعوزه المحبوب ففاضت أشواقه تنفيسا عما يكابد من ظمإٍ وحرمان .

وأنقل من شعره في السقط :

أسالَتْ أتِيَّ الدمع فوق أسيلِ
ومالت لظـلٌّ بالعراق ظليـــلِ
أيا جارةَ البيت المنعِ أهلُـه
غدوتُ ومَن لي عندكم بِمَقيـلِ
لِغيري زكاةٌ من جِمال وإن تكن
زكاةَ جَمالٍ فاذكري ابنَ سبيلِ
وأرسلت طيفا خان لمـا بعثتـه
فلا تشقي من بعـده برسولِ
أسرتِ أخانـا بالخـداع وإنـه
يُعَدُّ إذا اشتد الوغَـى بقبيـلِ
فإن تطلقيه تملكي شكرَ قومِـه
وإن تقتليه تؤخَـذي بقتيـــلِ
وإن عاش لاقى ذلةً ، واختيارُه
وفـاةُ عزيزٍ لا حيـاة ذليـلِ
وكيف يجر الجيش يطلب غارة
أسيرٌ بمجرورِ الذيـول كحيـلِ

* * * *

إن كان طَيفُكِ بَراً في الذي زعما
فإن قومكِ ما بَرُّوا لهــم قسَمــا
آلى أميرُكِ لا يسري الخيال لنا
إذا هجعنا ، فقد أسرى وما عَلِمَا
وكم تمنتْ رجال فيك مَغضَبةً
أن يُبصروه ، فلم يَظهر لهم سَقَما
نشوف من آلِ هندٍ بارقا أرِجاً
كأنمــا فُض عن مسكٍ وما خُتِمَا
إذا أطل عــلى أبياتِ باديــةٍ
قام الولائد يستقبسنــه ضَرمــا

****

إن كنتَ مدعيا مودة زينــبِ
فاسكبْ دموعكَ يا غمام وِنَسكُبِ
فمن الغمائم لو علمتَ غمامــةٌ
سوداء ، هُدْباهــا نظيرُ الهيدبِ
بالجفن بــارزتِ القلوب وإنما
بالنصلِ يبرز كلُّ شهم محربِ
كم قُبلةٍ لكِ في الضمائر لم أخف
منها الحسابَ لأنها لم تُكتبِ
ومتى خلوت بها من اجلكِ لم أُرَعْ
فيها بطلعة عاذلٍ من مرقــبِ

ورسولِ أحـلام إليكِ بعثتـــه
فأتى على يـأسٍ بنُجح المطلب
وكأن حُبَّكِ قال : حظُّكَ في السرى
فالطمْ بـأيدي العيسِ وجه السبْسَبِ

هي إذن مواجد محرومٍ من الحب ، ورؤى خيال لا سبيل له إلى سواها ، وإنه ليعلم أن حظه في السرى وأحلام الخيال ورؤى المنام ، فحسب .

وليس صحيحا أن أبا العلاء فيما غنى من شعر الغزل ، كان – على ما وهم واهمون – يتكلف النظم في كل أغراض الشعر المعروفة لعصره ، إعلانا عن اقتداره على الصنعة ، دون أن يكون لغزله حظ من صدق معاناة وجدانية .

كلا ، فليس أبو العلاء بالذي يزيف وجدانه أو يقول ما لا يجد . وإنما قال ما قال عن معاناة صادقة لحرمان قاس ، ولم يكذبنا القولَ بل كشف عن وطأة إحساسه الباهظ باللهفة إلى ما لا يُدرِك ولا ينال إلا بالخيال ؛ ورفع نجواه إلى حبيبة تمثلها ، لا حظَّ له منها إلا سراب زيَّنه الوهم ، والتشبث بطيفٍ يُلم بالمدنف الصبِّ ، ثم يسري بعيدا إلى حيث لا مطمع ولا رجاء :

يا غُرةَ الحيِّ الكثيـرِ شِياتُـــه
ما تـأمرين لمدنـفٍ متمائـــلِ
لاقاكِ في العام الذي ولّى فلـم
يسأَلك إلا قبلـةً في قابـــل

إن البخيل إذا يُمَدُّ لـه المـدى
في الجود ، هان عليه وعدُ السائلِ
وسألتُ ما بين العقيق إلى الغضا
فجزعتُ من أمـدِ النوى المتطاوِل
جهلٌ بمثلكِ أن يزور بلادَنـا
يختال بين أساورٍ وخلاخـل

****

منكِ الصدودُ ومني بالصدود رِضى
مَنْ ذا عليَّ بهذا في هواكِ قضى ؟
بي منكِ ما لو غدا بالشمس ما طلعتْ
من الكآبة ، أو بالبرقِ ما ومضا
جرَّبتُ دهري وأهليه فما تركتْ
ليَ التجاربُ في ودِّ امرىءٍ غرضا
إذا الفتى ذم عيشاً في شبيبتـه
ماذا يقول إذا عصرُ الشبابِ مضى

****

ولا نرفض احتمال أن تكون هذه الغزلياتُ من الشعر الرمزي الذي يُخفي وراءَ ظاهر لفظه دلالةً مستورة على أمنياتٍ تعلق بها أبو العلاء في شبابه الطامح ، كأن تكون هذه الحبيبة رمزاً إلى الدنيا ، أو إلى المجد ، أو إلى نعمة البصر التي حُرِم منها ، أو ... أو ...

وتبقى مع هذا كله ، دلالة إيثاره لهذا الأسلوب ، على ما كان يضمر من معاناة لمواجد الحب . وهي دلالة لا تكشفها قصائده المفردة للغزل فقط ، بل تنم عنها كذلك مطالع قصائد أخريات في غير الغزل : كاستهلاله بعضَ مدائحه في ديوانه الأول ، بمثل قوله :

يا ساهرَ البرقِ أَيقظْ راقد السمَرِ
لعل بالجَزْعِ أعوانا على السهرِ
ويا أسيرةَ حِجْلَيها أرى سَفَهــاً
حَمْلَ الحلِيِّ لمن أعيا على النظــر
ما سرتُ إلا وطيفٌ منكِ يتبعني
سُرىً أمامي ، وتـأْويباً على أثري
لو حطَّ رَحْلِيَ فوق النجم رافعه
ألفيت ثَم خيالاً منك مُنتَظِري
يود أن ظــلام الليل دامَ لــــه
وزيدَ فيه سواد القلب والبصرِ !!

واستهلاله قصيدة إخوانية إلى « الشريف موسى بن إسحاق » بقوله :

أَلاَحَ وقد رأى برقاً مليحـــــا
سرى فأَتى الحِمى نضوا طليحا
كما أغضى الفتى ليذوق غَمْضاً
فصادف جَفنُه جفنــاً قريحــا

إذا ما اهتاج أحمر مستطيرا
حسبت الليلَ زنجيا جريحا
أقول لصاحبي إذ هام وجدا
ببرقٍ ليس يُثبته نزوحا
وهاجتْه الجنوبُ لوصلِ حَيٍّ
أقام ، ويمموا داراً طروحا
سفاهُ لوعة النجدي لما
تنسم من حيال الشام ريحا
وغيٌّ لمحُ عينكَ شطرَ نجدٍ
إذا ما آنستْ بَرقا لموحا
وأمراضُ المواعدِ أعلمتْني
بأن وراءها سقما صحيحا

* * * *

ويطول تأملنا في رسوخ لون الحمرة في وجدانه مختلطا بسواد ليله فهو في رؤيته الشعرية هنا : زنجي جريح : كما كانت ليلة لهوه عروسا من الزنج، شاب الدجى فغطّى مشيبه بالزعفران خوف هجرها ..

وفي أغانيه للحب ، حِسٌّ الحزن الكامن في أعماقه ، وصدى اليأس المطوي تحت قناع الرضى بالصدود والنشوة بأماني الخيال ، متحديا بذلك واقعَه المحروم ، وملتمسا لظمئه من سراب الوهم رِيّا .

وإذا عجبنا لما في غزلياته من حديثٍ مثله عن السيف والغمد والحمائل ،

وعن الغارة والجيش ، والأسير الذي * يُعد إذا اشتد الوغى بقبيل*

فأعجبُ منه أن نراه نظم في (الدرعيات) ديوانا ـ ملحقا بسقط الزند ـ وهي من عدّة الحرب التي لا مجال له فيها بحال !

ماضياً في ذلك ومثله على غُلوائه ،

ومُصِرا على أن يخوض معركته بكل ما استطاع ، أو تكلف ، من مكابرة وعنادٍ .....

****

obeikandl.com

وَمضات كاشفة

نلومُ على تَبَلُّدِهـا قلوبـا
تكابد من معيشتهـا جهـادا

**

فالأرضُ تعلمُ أنني متصرِّفٌ
من فوقها ، وكأنني من تحتها !

أبو العلاء
(سقط الزند)

أكان أبو العلاء في لطف حِسِّه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته ، بحيث يجهل عُقَمَ المكابرة التي تصل به إلى ما رووا من قوله إنه يحمد الله على العمى ، أو قوله في (السقط) :

وأغدُو ولو أن الصباحَ صوارِمٌ
وأَسْرِي ولو أن الظلام جحافلُ ؟

كلا ...

وإنما كان يجلجل بهذا الادعاء رجاء التشاغل عن واقعه المر ، وحمل نفسه على المقاومة والتجمل بالصبر على ما لا حيلة له فيه .

أو لعله كان يحاول بهذا الضجيج الصاخب ، أن يُصم سمعه عن صوتٍ في أعماقه يؤرقه ليل نهار :

ـ أما آن أن تكُف عن هذا العناد العقيم والمقاومة المهدَرة ؟

وقد عبر عنه ، دون تنبهٍ فيما أُقدر ، مطلع قصيدته الحماسية في جهاد المسلمين ضد الروم :

لقد آن أن يثني الجموحَ لجامُ
وأن يَملك الصعبَ الأَبيَّ زمـامُ

وعبرت عنه كذلك نفثات حزينة أفلتت منه واشِية بما كان يطوي في أعماقه ، ووميضاتٌ كاشفة عن مكتوم قهره ومكبوت أساه .

وأكثر ما تلقانا هذه الوميضات ، في مراثيه الناضحة بالمرارة والشجن واليأس . أذكر منها على الخصوص ، مراثيه في أبويه ـ وستأتي بعدُ ـ ومرثيته في « جعفر بن علي بن المهذب » وقد كان من رفاقِ صِباه ، مع صلة مصاهرة ربطتهما بزواج أبي محمد بن المهذب ، عم جعفر ، من عمة أبي العلاء .

في هذه المرثية يقول :

كان الأَسى فرضاً لو أن الردى قال لنا : افدوه ، فلم نَفدِه
يـا دهرُ يـا منجز إيعـادِه ومُخلـفَ المأمـولِ من وعده
تستأْسر العقبـانَ في جَوِّهـا وتُنزِل الأَعصمَ من فنـدِه

أرى ذوي الفضل وأَضدادَهم ... يجمعهم سَيلُك في مَـــدِّه
تجربــةُ الدنيــا وأَفعالهــا ... حثَّت أخــا الزهد على زهده
إن زمــاني برزايــاه لــي ... صيَّرنــي أَمْرَحُ فــي قدِّه
لو عرف الإنسانُ مقـــدارَه ... لم يفخر المولى على عبده
أَمسِ الذي مَرَّ ، على قُربِـــه ... يعجز أَهلُ الأَرض عن ردِّه
أَضحى الذي أُجِّلَ في سِنِّـــه ... مثلَ الذي عوجلِ في مهده
ولا يُبــالي الميْت في قبــرِه ... بذمِّـه شُـيِّع أَم حَمـدِه
والواحــدُ المفــردُ في حتفِـه ... كالحاشدِ المُكثِرِ مـن حشده
وحالةُ الباكــي لآبائـــه ... كحالةِ البا كي عـلى ولْدِه
مــا رغبةُ الحــيِّ بأَبنائـــه ... عما جنى الموتُ عـلى جَدِّه
تدعو بطول العمرِ أَفواهُنــا ... لمن تناهى القلبُ في وُدِّه
يُسرّ أَن مُــدَّ بقــاءٌ لــــه ... وكل ما يكره في مَـدِّه !

****

ومرثيته المشهورة ، في الفقيه القاضي « أبي حمزة التنوخي » وهو من بني عمومته ورفاق صِباه ، وليست في الحق سوى مرثية للإنسان ، في عمومه المطلق :

غير مُجدٍ في ملّتي واعتقــادي ... نوحُ باكٍ ولا ترنمُ شادِ
وشبيه صوتُ النعيِّ إذا قِيـ ... ـسَ بصوتِ البشير في كل نادِ
أَبَكَتْ تلكمُ الحمامةُ أَم غنَّـــــت على غصن فرعِها الميَّادِ
صاحِ هذي قبورنا تمـلأُ الرُّحْــــبَ فأَين القبورُ من عهد عادِ
خفِّف الوطءَ ما أَظن أَديم الـ ... أَرض إلا من هذه الأَجساد

وقبيحٌ بنـا وإن قـدم العهـ ـدُ هوانُ الآبـاء والأَجـدادِ
سِرْ إن أسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالا على رُفاتِ العبـادِ
ربَّ لحدٍ قد صار لحدا مرارا ضاحكٍ من تزاحم الأَضدادِ
ودفينٍ على بقايـا دفيـنٍ في طويل الأَزمان والآبادِ
تعبٌ كلُّهـا الحياة فمـا أَء جَبُ إلا من راغب في ازديادِ
كنتَ خِلَّ الصبا فلما أَراد الـ ـبَيْنُ وافقتَ رأْيه في المرادِ
وخلعتَ الشباب غضـا فيا ليتـك أَبليتـه مـع الأَنـدادِ
.....

••••

وأملى من شعره اعتذارا لبعض إخوانه عن قعوده عن التعزية في فقيد من أهله :

يا راعيَ الودِّ الذي أَفعالـهُ
تُغني بظاهر أَمرها عن نَعتهـا
لو كنتُ حَيّاً ما قطعتك فاعتذر
عـني إليـك لخُلـةٍ بأَمَتِّهـا
فالأَرض تعلـم أَنني متصـرف
من فوقها ، وكأَنني من تحتِها
غدرتْ بيَ الدنيا وكـلُّ مصاحبٍ
صاحبتُـه غـدرَ الشمال بأُختِهـا
شُغفت بوامِقها الحريصِ وأَظهرتْ
مقتي لمـا أَظهرته من مقتهـا

لا بـــد للحسناء من ذامٍ ولا
ذام لنفسي غيرُ سيىء بَختِهـــا
ولقد شركتُك في أساكَ مشاطرا
وحللتُ في وادي الهموم وخَبْتِها

****

ومنا من كان يظن أن مراثيه تنفرد بهذا الإيقاع الحزين والشجن المر ؛ وأن غيرها من شعر شبابه ، يسيطر عليه طموح الاستعلاء وزهو الاعتداد وجموح التحدي .

وأعترف بأنني كنت إلى عهد قريب ، مع الذين غلب عليهم ذلك الظن . ثم لما عاودت الإصغاء إلى أبي العلاء في صحبتي الحميمة له ، أدركت أننا قد فاتنا لمحُ الومضات الكاشفة عن الجرح الغائر في أعماق وجدانه ، لا في مراثيه فحسب ، ولكن في مدائحه كذلك وحماسياته ، وغزلياته وفخرياته ، وأكاد أقول : في كل قصيدة من شعر شبابه . وإنما شُغِلنا عنها ببريق طموحه الساطع ، وتاهت منا في ضجيج مكابرته واستعلائه . وعذرُنا أن أبا العلاء نفسه قد حاول صادقا مخلصا أن يُشغَل بهذا الضجيج عن مكابدته النفسية لدواعي اليأس والقنوط ، وهواجس الخيبة والقهر . لولا أنْ أفلتت من أعماقه ، من حيث أراد أو لم يرد .

وقد مرَّت أبياتٌ من الفخرية التي استهلها بالسؤال العجيب :

أفوقَ البدرِ يوضَع لي مهـــادُ
أمِ الجوزاء تحت يدي وِسادُ ؟

فلنصْغ إذن إلى مافيها من حسرة الحرمان وجهد الظمأ ، لايخفيه

أن ردَّ هذا الحرمان إلى أن موضعه فوق السحاب ، حيث لا قطرة من ري :

كأني حيث يَنْشا الدجْن تحتي
فها أنـا لا أُطَلُّ ولا أُجـادُ
أأخملُ والنباهـةُ فـيَّ لفـظ
وأقتـر والقناعـةُ لي عتـادُ
وألقى الموتَ لم تخد المطايـا
بحاجاتي ، ولم تَجِف الجيادُ !

****

وأبياته التي باهى فيها بشرفه * الذي يطأُ الثريا * مع الفضل الذي بهر العبادا * وأعلن أنه يفل نوائب الأيام وحده * إذا جمعت كتائبها احتشادا * ...

هذه الأبيات مسبوقة بهذا الاستسلام المر والاستهلال البائس الحزين :

أرى العنقاء تكبرُ أن تُصـادا
فعانِدْ من تطيق لـه عنـادا
وما نهنهت عن طلب ولكـنْ
هي الأيـام لا تُعطِـي قيـادا
نلوم عـلى تبلُّدِهـا قلوبـا
تكابد من معيشتهـا جهـادا
إذا ما النار لم تطعم ضرامـا
فأَوشِكْ أن تمر بهـا رمـادا

ولما أن تَجَهَّمني مرادي
جريتُ مع الزمان كما أرادا
وهوَّنتُ الخطوبَ عليَّ حتى
كأني صرت أمنحها ودادا
أأنكرها ومنبتُها فؤادي
وكيف تنكِّرُ الأرضُ القَتادا

****

وقصيدته النونية في ذكرى ليلة لهو كأنها عروس من الزنج ، مطلعُها هذا الجؤارُ المؤثر والشكوى من ظلام لا يفنى :

عَلِّلاني فإن بِيضَ الأماني
فنيت والظلامُ ليس بِفانِ
كم أردنا ذاك الزمانَ بمدح
فشُغلنا بذمِّ ذاك الزمانِ

وفيها يقول للشريف« أبي ابرهيم موسى » معتذرا :

فاقتنع بالرويِّ والوزن مني
فهمومي ثقيلة الأوزان
من صروفٍ ملَكْن فكري ونطقي
فهي قيد الفؤاد قيد اللسان

****

ولاميته المشهورة في الفخر ، وقد قالها في عنفوان شبابه ووقدة

طموحه ، لم تخلُ من كلماتٍ تنم عما حاول أن يطوي من هموم ، تحت ركام التبلد والمداراة :

يهم الليالي بعضُ ما أنا مُضمِر
ويُثقِل رضوى دون ما أنا حاملُ
وطال اعترافي بالزمان وأهلـــه
فلست أُبالي مَن تغول الغوائـلُ
فلو بان عضدي ما تأسَّف منكبي
ولو مات زندي ما بكته الأَنامـلُ

****

ويستهل أُخرى من قصائد التحدي ، بهذا الأَنين الجريح :

ذَلَّتْ لمـا تصنـع أيامُنـا نفوسُنـا تلـك الأَبيَّاتُ
تجني خمورُ الهمِّ ما لم تكن تَجني الخمورُ العنُيْبِيـات

****

ويروون أنه سُئِل إجازةَ هذا البيت :

شُغلي ببُعدي عنـك يَشغلني ويصُدني عن كل أَشغـالي

فصدرت عنه هذه النفثة ، مشحونة بهواجس القلق ولهاث الظمأُ وعقم السراب :

ما يومُ وصلِك وهو أقصرُ مـن
نَفَسٍ ، بأَطولِ عِيشةٍ غَـــالِ
عَلِقتْ حبالَ الشمس منك يدي
وجديدُها في الضعف كالبـالي

وأردتُ وِرْدَ الوصلِ من قمـر
فصـدَرتُ عنـه كواردِ الآلِ
وطلبت عندك راحةً ، وعـلى
قدر اعتقادي كـان إدلالـي
وظننتُ في البلوى مُنايَ ولـم
تكن المنية لـي عـلى بـالِ
ما زلت أبلـغ ما هممـت بـه
حتى هممتِ بكوكـبٍ عـال
إن فات سلوان الحياة فكـلُّ الناس بعد مماته سالِ
. . . . . .
يـا جَنَّـةً عرضتْ مُعَجَّلـةً
فاخترتُهـا وعصيـتُ عُـذَّالي
يضحي الرضابُ لأهلها بـدلاً
من بـاردٍ في الخُلـد سلسالِ
إن لم تدومي صحَّ في خَلَدي
أني بنـارِ جهـنمٍ صـالِ
قلبي أعاتـب فهـو يلزمـني
أبداً تكلُّف هـذه الحـالِ

****

وإذن فلم يكن أبو العلاء في معركته الأُولى ، قد كذبتْه نفسُه أو أخطأَه حِسٌّ ما تُكابد من هم وقهر .

كلا ، ولا كان شعره في التحدي والمكابرة ، من الزيف الوجداني ...

وإنما يشهد ديوانه الأول ، أن الشاب الموهوب الطامح ، حاول ما وسعه الجهد أن يقاوم الاستسلام إلى واقعه ، وأن يفلت مما كبَّلته به محنته من أغلال تشل انطلاقه وتلجم طموحه ، دون أن يخونه في هذه المحاولة وعيُ ذاته .

وبقدر ما كان صادقا في شعره المعبر عن إرادته المصممة على الاستعلاء ، وإصراره العنيد على المكابرة والتحدي .

كان صادقا كل الصدق في تلك الفلتات الكاشفة عن مطويِّ أشجانه ، الصادرة عن قلب يكابد محنة العيش :

نلوم على تبلُّدِهـا قلوبـــا تكابد من معيشتها جهـادا

مَوتُ الأبِ

لقد مسخَتْ قلبي وفاتك طائـرا
فأَقسمَ ألَّا يستقر عـلى وكْـنِ
يُقضِّي بقايا عيشه ، وجناحُـه
حثيثُ الدواعي في الإقامة والظعنِ
كأَن دعاءَ الموتِ باسمكَ نكـزةٌ
فرتْ كبدي ، والسمُّ ينفث في أُذْني

أَبو العلاء

(سقط الزند)

مضى الحائر في معركته منتظرا ما تـأْتي به الأَيام .

وجاءته الأَيام بما انتظر ، وإن جاوزت المدى في قسوتها .

لقد توقع بحسه الملهَم أن في جعبتها سهاما أُخرى ، لكنه لم يكن يدري في أي موضع يقع السهم هذه المرة .

حتى مات أبوه ، فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضرير أبا رحيما ومعلما صديقا ، وحُرم بفقده من كان يعينه على محنته ، ويمنحه زادا من طاقة المقاومة والاحتمال .

****

متى مات أبوه ؟ وأين ؟

اختلفت الروايات في الزمان والمكان اختلافا بعيدا ، وإن كانت في جملتها ترجع إما إلى قول « ياقوت الحموي » : « إنه مات بحمص سنة ٣٧٧ هـ »[١] ،

أو إلى قول « ابن العديم» :

« وتوفي أبو محمد ، عبد الله بن سليمان ، والد أبي العلاء ، بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة »[٢] .

وبين الروايتين فرق شاسع لا يهون أن نمر به دون أن نحاول الاهتداء فيه إلى ما نطمئن به إلى أننا لم نفقد الشعاع المضيء لحياة أبي العلاء ، في تلك المرحلة الدقيقة من رحلة حياته ، وهو يخوض معركته الأولى مع الأيام ، مضغوطا بين طموح آمل ، وواقع مثبط مخذل .

ومصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء) لم يفتهم أن يلحظوا بُعد ما بين الروايتين . لكنهم فيما يبدو ، اكتفوا بتقرير رواية « ياقوت » حيث اعتمدوها بغير توقف أو تعليق . ثم لما وصلوا إلى رواية « ابن العديم » لم يدعوها تمر كما مرت سابقتها ، بل علقوا

---

(١) إرشاد الأريب : ١٦٣/١ ط هندية .

(٢) الإنصاف والتحري ، ٤٩٣ / تعريف .

عليها في الهامش بما نصه :

« كذا ، وإنما توفي سنة ٣٧٧ بحمص كما نص ياقوت »[١] .

دون أن يتجشموا مشقة الفحص النقدي لكلتا الروايتين .

ودون أن يشيروا من قريب أو بعيد ، إلى وجهٍ ما من وجوه اعتماد رواية ياقوت ، وتقريرها بصيغة القصر الحاسم .

ويشق علينا أن يُحسم ذلك الخلاف بمثل هذه البساطة ، مع ما نعلمه من تخصص « ابن العديم » في تاريخ حلب وأعيانها ، وتفرغه لتصنيف كتاب جامع مفرد ، عن أبي العلاء وأسرته ، مما يجعله بادئ ذي بدء أولى بالثقة من « ياقوت.» الذي كان اهتمامه بأبي العلاء محدودا بالقدر الذي تتسع له ترجمة ياقوت للحشد الكاثر من الأدباء في معجمه الكبير .

ثم إن « ياقوت » فيما روى من أخبار أبي العلاء وأهله ، يرسل مروياته غالبا بلا إسناد . على حين يحرص « ابن العديم » على إثبات أسانيده . وأكثرُ مَن روى عنهم ، من بني سليمان أو من بين الذين لقوا تلاميذ أبي العلاء ومعاصريه . كما يحرص على تحديد طرق التلقي قراءة أو سماعا أو إجازة أو مكاتبة أو وِجادة ،[٢] على أدق الضوابط المنهجية للرواية .

ونقول مع هذا : إن تخصص « ابن العديم » وسلامة منهجه ، إذا لم يكفيا لترجيح روايته في وفاة والد أبي العلاء ، فلها ما يؤازرها من

---

(١) التعريف : ٤٩٣ – وقابله على ما في صفحة ٦٩ ، منه .

(٢) الوجادة في المصطلح، ما يجده الراوي بخط المروي عنه . وهي في الأصل مما وضعه علماء الحديث من ضوابط الرواية والإسناد . أنظر (مقدمة ابن الصلاح) .

قرائن وشواهد ، يقدمها الفحص النقدي لكلتا الروايتين :

فعلى رواية ياقوت ، يكون أبو العلاء قد امتحن باليتم وهو غلام في الرابعة عشرة من عمره . ومؤرخوه قد أجمعوا على أنه بدأ يقول الشعر وهو ابن إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة ، فلننظر إذن في مرثيته لأبيه لنرى ما إذا كانت تجربة غلام مراهق ، لم يبدأ نظم الشعر إلا قبل موت أبيه بعامين أو ثلاثة ، على أقصى الأجلين ؟

نَقِمتُ الرضى حتى على ضاحكِ المُزنِ
فلا جادني إلا عبوس من الدجنِ
فليت فمي إن شامَ سِنِّي تبسما
فمُ الطعنة النجلاء تدمي بلا سنِّ
أبي حكمتْ فيه الليالي ولم تزل
رماحُ المنايا قادراتٍ على الطعنِ
مضى طاهرَ الجثمانِ والنفس والكرى
وسُهدِ المُنى والجيبِ والذيل والرُّدنِ
فيا ليت شعري هل يخف وقارُه
إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعهنِ
وهل يَرِدُ الحوض الرويَّ مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحامَ فيستأني
حِجاً زاده من جرأة وسماحةٍ
وبعضُ الحِجا داعٍ إلى البخل والجبن

****

على أُمِّ ذفْرٍ غضبـــةُ الله إنهـــا
لأَجدَرُ أنثى أن تخون وأن تخـني
كعاب : دُجاها فرعُها ، ونهارُهـا
مُحيّاً لها قامت له الشمسُ بالحسنِ
رآها سليلُ الطين والشيبُ شامـل
لها بالثريا والسِّماكيْـن والـوَزنِ
زمانَ تولتْ وأدَ حـواءَ بنتهَـا
وكم وأدت في إثْرِ حواءَ من قَـرنِ
كـأَن بنيها يولَدون وما لهـا
حليلٌ ، فتخشى العارَ إن سمحت بابنِ
جهِلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا ، والعلمُ للهِ ذي المَـنِّ
إذا غُيِّب المـرءُ استسر حديثـه
ولم تخبر الأَفكار عنه بمـا يغني
تضل عقول الهبرزيـات رشدَهـا
ولم يسلم الرأْيُ القويُّ من الأَفْنِ
وقد كان أَرباب الفصاحة كلمـا
رأَوا حسنا عدوه من صنعة الجِـنِّ

****

وجدنـا أَذى الدنيا لذيذا كأَنمـا
جَنى النحل أَصنافُ الشقاء الذي تجني

فما رغبت في الموت كُدْرٌ مسيرُهـا
إلى الوِرْدِ خمسٌ ، ثم يشربن من أجن
يصادفن صقـرا كل يوم وليلـة
ويلقين شرا من مخالبـه الحُجْنِ
ولا قلقاتُ الليْلِ باتت كأنهـا
من الأَيْنِ والإدلاج بعضُ القَنا اللُّدْنِ
ضربن مَليعـا بالسنابك أربعـا
إلى الماء لا يَقدرن منه عـلى مَعْنِ
وما استعذبته روحُ موسى وآدم
وقد وُعِدا من بعـده جنتي عَـدْنِ

****

أمولى القوافي ، كم أراك انقيادُها
لك الفصحاء العُرْبَ كالعجمِ اللُّكْنِ
هنيئا لـك البيت الجديد موسـداً
يمينك فيه بـالسعادة واليُمـن
مجاورَ سَكْنٍ في ديـارٍ بعيـدة
من الحي ، سقيـاً للديـارِ وللسَّكْـنِ
طلبتُ يقينا من جهينـةَ عنهـم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظـن
فإن تعهديني لا أزال مسائـلا
فإنيَ لم أُعْـطَ اليقيـنَ فأستغـني

وإن لم يكن للفضل ثَـم مزيـةٌ
على النقص ، فالويل الطويل من الغَبْنِ

****

أَمُر بِرَبْـعٍ كنتَ فيه كأنمـا
أمر من الإكرام بالحجْـرِ والرُّكْنِ
وإجـلالُ مغنـاك اجتهـادُ مقصِّرٍ
إذا السيف أودى فالعفاء على الجَفْنِ
لقد مسختْ قلبي وفاتُـك طائـرا
فأقسم ألا يستقرَّ عـلى وكـن
يُقضي بقايـا عيشه ، وجناحُـه
حثيثُ الدواعي في الإقامـة والظعـن
كأن دعاء الموتِ باسمِـكَ نكـزةٌ
فرَتْ جسدي ، والسمُّ ينفث في أُذني
ضعفتَ عن الإصباح والليلُ ذاهبٌ
كما فني المصباح في آخرِ الوهنِ
ومـا أكثر المُثنِي عليـكَ ديانـةً
لو آن حِماما كـان يَثنيه من يُثنِي
يوافيكَ من رب العلا الصدق بالرضى
بشيرا ، وتلقاكَ الأَمانـةُ بالأَمْـنِ
ويكفى شهيدُ المرءِ غيـرَكَ هيبـةً
وبُقيا ، وإن يُسأَل شهيدك لا يَكني

يصرحْ بقول المسك دونك نفحة
وفعـلٍ كأَمـواه الجنـان بلا أَسْنِ
يدٌ يَدَت الحسنى ، وأَنفاسُ ربِّهـا
تُقى ، ولسانٌ لا يحـرك باللسن
فليتك في جَفني مُـوارى نزاهـةً
بتلك السجايا عن حشايَ وعن ضبني
ولو أودعوكَ الجوَّ خِفنا مَصِيفَـه
ومَشتاه ، وازداد الضنينُ من الضنِّ
فيا قبر واهٍ من ترابـك ليِّنـا
عليه وآهٍ من جنـادلـك الخُشن

****

فهل أنت إن ناديتُ رمسَك سامعا
نداءَ ابنِك المفجوع بل عبدِك القنِّ
سأَبكي إذا غنى ابن ورقـاءَ بهجـةً
وإن كان ما يعنيه ضدَّ الذي أَعني
ونادبـةٌ في مسمعي كـلُّ قينـة
تغرد باللحن البريء عن اللحن
وأَحملُ فيكَ الحزنَ حيا فإن أَمُتْ
وأَلقَكَ لم أَسلُك طريقا إلى الحزن
وبَعـدَك لا يهـوى الفـؤاد مسرةً
وإن خان في وصلِ السرور فلا يهني

****

هل يمكن أن نتصور أن هذه المرثية من تفكير غلامٍ مراهق ، ونظم شاعر مبتدىء في مستهل تجربته الشعرية ؟

لقد نقل الإخباريون ما بهر الناسَ في صباه من نادر ذكائه وفطنته وقوة حافظته وعجيب ذاكرته .

وهذا الذي في المرثية ، ليس مما يدخل في نطاق ما اشتهر به في صباه ، بل يتجاوز الفطنة والحافظة والذاكرة ، إلى الحكمة والتأمل والرأي والموقف ، ويُطل على الوجود من أُفقٍ هيهات لوعي صبيٍّ أن يشارفه ، فضلا عن أن يتخذ منه موقفا ويصوغ تأملاته فيه ، هذه الصياغة الشعرية الناضجة الصعبة .

كلا ، ليس صوت أبي العلاء هنا صوت فتى مراهق ، بل هو صوت رجلٍ حكيم مجرب ، بَلاَ الدنيا وعرف حكم الليالي وأثخنته الجراح ، وأطال التأمل في لغز الوجود والعدم ، وأرهقته الحيرة في التماس اليقين .

صوت نحس فيه نبرات واضحة مما يأتينا بعدُ من حديثه في عزلته ، رهين محبسيه ، يُملي (الفصولَ والغايات) وديوان (لزوم ما لا يلزم) وآثاره الأخرى في الطور الثاني من حياته .

إلا أن يقال باحتمال أن يكون « أبو العلاء » قد رثى أباه بأخَرة ، بعد أن نضج وعيه وشعره .

وهو احتمال يُبعده شاهدٌ من نص المرثية ، حيث الحديث عن مشهد احتضار الفقيد والليل ذاهب ، وعن وقع النعي على الابن المفجوع ، والسؤال اليائس : هل يسمع الراحل الدعاء ؟

ومثل ذلك لا يكون إلا واللوعةُ حارة ، والجرح حيٌّ دامٍ ، والعهد بالمصاب في الفقيد جدٌّ قريب .

****

وكانت وفاته بمعرة النعمان كما نقل « ابن العديم » وليس في حمص ، على رواية « ياقوت » .

بشاهد كذلك من نص المرثية ، حيث يقف أبو العلاء على قبر أبيه ويسائله وينادبه ، وما نعلمه ذهب قط إلى حمص ليقف على قبرٍ هناك وينادي ثاويا في رمسه .

وإذ يقول أبو العلاء في مضجع أبيه :

مجاورِ سكْنٍ في ديـــار بعيـــدة
من الحيِّ ، سُقيا للديـــار وللسَّكْنِ
طلبت يقينا من جهينـــة عنهـــم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن السياق يُحيل أن نحمل « بعيدة » على البُعد المكاني بين معرة النعمان وحمص ، إذ ليس سكان الديار في حمص بحيث يَطلب أبو العلاء يقينا عنهم من جهينة ، فلا تخبره سوى الظن .

وإنما هو على التحقيق ، البعد الشاسع الرهيب بين الحيِّ وديارٍ منه يسكنها الموتى في المقابر ، وليس أبعدَ منهم داراً وأنأى مزارا .

****

وينجلي الموقف تماما إذا تابعنا فحص رواية ياقوت ، التماسا لوجه الشبهة في قوله إن والد أبي العلاء : عبد الله بن سليمان « توفي بحمص

سنة ٣٧٧ هـ » .

ففي هذه السنة بالذات ، توفي « أبو الحسن سليمان » جد أبي العلاء .

وفي حمص : « كانت وفاته ، وهو على قضائها . ودُفِن ظاهرَ بابِ الرَّستَن » كما نص على ذلك « ابنُ العديم » [١] .

فلعل الأمر تشابه على ياقوت لوهمٍ آخر وقع فيه ، حين ذكر أن جدَّ أبي العلاء « ولِيَ القضاء بحمص ، وبها مات في سنة ٢٩٠ هـ » [١] .

وقد تنبه مصنفو (التعريف) إلى هذا الوهم ، وقابلوه على ما في (الخريدة لابن العماد الأصفهاني) من ولاية جدٍّ جدَّ أبي العلاء القضاء في سنة ٢٩٠ هـ . واسم الجد أيضا : أبو الحسن سليمان ، بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر [٢] .

وبقي أن نقابله على ما في (الإنصاف والتحري) من قولٍ لبعض الناس : إن جد الجد ولي قضاء المعرة في سنة ٢٩٠ هـ . وبعضهم يقول : إن الذي تولى القضاء سنة ٢٩٠ هـ ، هو ابنه أبو بكر محمد ، جد والد أبي العلاء [٢] .

ثم نضيف إلى ذلك ما تظاهرت عليه الروايات من أن أبا العلاء « أخذ الحديث عن أبيه ، وجدِّه سليمان بن محمد » فكيف يأخذه عمن مات في حدود الثلاثمائة ، على رواية ياقوت ، قبل مولده بأكثر من ثلاث وستين سنة ؟

****

---

(١) في الإنصاف والتحري : ٤٩٢/ تعريف .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء : ٦٨ ط القاهرة .

هكذا يشق علينا أن نأخذ ، من أي سبيل ، برواية « ياقوت » في أن جد أبي العلاء « أبا الحسن سليمان » توفي سنة ٢٩٠ هـ ، وتوفي الأب « عبد الله بن سليمان بحمص سنة ٣٧٧ هـ ، وهو ما اعتمده مصنفو التعريف ، في تاريخ وفاة والد أبي العلاء ، ومكان موته .

ونعدل عنها مطمئنين إلى خبر « ابن العديم » مؤرخه الثقة :

جَدُّ أبي العلاء « أبو الحسن سليمان : توفيّ سنة ٣٧٧ هـ بحمص ، وهو على قضائها ، ودُفن ظاهر باب الرستن » .

ووالد أبي العلاء « عبد الله بن سليمان : توفي بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة » .

فأحس ولده أبو العلاء ، أن قلبه مُسِخ بين جوانحه طائرا شريدا هائما ،

فأقسم ألَّا يستقرَّ على وكن
يُقضِّي بقايا عيشه ، وجناحُه
حثيث الدواعي في الإقامة والظعن
. . . . . .

إحدى الراحتين

أمَا آنَ أن يثني الجموحَ لجامُ
وأن يَملِكَ الصعبَ الأَبيَّ زمامُ

أبو العلاء

(سقط الزند)

مات أبوه ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، قد استنفد طاقته على تحدي محنته وإرادة الاستعلاء عليها ، وأرهقته الضغطة بين شَدِّ الطموح وعجز الوسيلة والأداة ، فبدأ يفيق بالصدمة ، من أكاذيب المنى وسكرة الوهم ، ويتهيأ للتطور الخطير الذي سوف يجدُّ على حياته بعد بضع سنين .

ولعله بدأ عقب موت أبيه ، يفكر في أن يلقي سلاحه ويلزم موضعه ، ويُقر بأن العمى نقمة لا نعمة ،

لكنه تردد في الأمر يبلو نفسه ، وقد أشفق من أن تكونَ رغبته في

الاستسلامَ طارئة بفعل الصدمة ، وأن يخونه وهم الراحة باليأس ، كما خانه وهم الراحة بالأمل .

كان يخشى أن تكون في النفس بقية من أثر محاولته التي طالت ، وأن يظل في مسمعه صدىً راسخ من شعره الأول الذي مضى فيه على غلوائه محاولا أن يقنع نفسه ، قبل أن يقنع سواه ، بأنه مستطيع أن يرقى إلى ما فوق النجم ، حيث لا يبلغ شأوَه منافس متطاول ، ولا يصل إليه نباح حاسد حاقد .

ولقد حاول قدر استطاعته أن يتجلد للصدمة الجديدة ، وأن يطوي جرحها في أعماقه المثخنة بالجراح ، كيما يستأنف صراعه مع الدنيا . فما كان من السهل عليه أن يئد طموحه مرة واحدة ، وأن يقهر ما لبشريته من أشواق سيظل يكابدها ما عاش .

بل ليس ببعيد أن تكون الصدمة الجديدة قد أرهفت وهمَ تجلُّدِه ، وغَشِيَه من دُوَارِها ما خَيَّلَ إليه أنه قادر على احتمال كل ما تأتي به الدنيا من رزايا .

وأعانه على ذلك أن أمَّه الغالية قد بقيت له ، ولَديها يمكن أن يَجِد العِوضَ عمن فقد ، ويلتمس العزاء عما لقي من عنَت الأيام والليالي .

****

وفي هذه الفترة من أخريات القرن الرابع ، بدأ يفكر في الرحلة إلى بغداد لعله يختبر طاقته على مجاهدة نفسه ، أو مجاهدة الدنيا :

مجاهدة نفسه فيما رسَّخَ فيها من أشواق الطموح وأغراها به من إرادة الاستعلاء .

أو مجاهدة الدنيا فيما رَسَخَ في فطرته من حُبٍّ لها ، وما خايله من سراب الأَمل فيها وإمكان الظفر بها والاقتدار عليها .

وأطال التفكير ، ومن شأْنه أن يطول :

احتاج في حيرته إلى ثلاث سنين ، بعد موت أَبيه ، ليستقر عزمه على رأْي في هذه الرحلة التي تنزعه من دنياه بين أَهله وتلقي به في منازح الغربة ، ولكنها مع كل ما يحف بها من مخاوف ومخاطر ، رحلة اختبار لا بد منه . فهي وحدها التي يمكن أَن تحسم موقفَه بين مُضيٍّ في المقاومة والتحدي والمكابرة ، وبين ما يهفو إليه من استقرار بالكف عن معاندة قدَرِه : « فعانِدْ مَن تطيق له عنادا » .

في أُخريات سنة ٣٩٨ هـ ، كان قد أَجمع أَمره على الرحلة إلى مدينة السلام ، عساه ألا يلدغ من جحر مرتين : يتعلق براحة القنوط ثم تخذله نفسه ، كما تعلق فيما مضى من عمره براحة الأَمل ، فخذلته الدنيا .

وأعلَم أُمَّه بعزمه الجاد على السفر فأَذنت له فيه حين لم يكن لها إلا أَن تأْذن . وانتفض قلبه وهو يفارقها مودعا ، كأَنما حدثه القلب أَنه الفراقُ لا لقاءَ بعده .

وودع أَهل معرة النعمان ، وكلهم عشيرة وجيران .

وخلَّف مهد مولده ومدرج صباه ، وما من أَحدٍ يدري ماذا يستقبل هذا المسافر الضرير في غده .

بل ما كان ، هو نفسه ، يدري حقا : هل آن الأَوان ليستيقن من جوابٍ عن السؤال الملحِّ على وجدانه الحائر المتعب :

أما آن أن يثني الجموحَ لجامُ

وأن يملك الصعبَ الأبيَّ زمام !

قصارى ما كان يدريه ، هو أنه لم يبق عليه إلا أن يجتاز هذا المعبر عند مفترق الطرق ، إلى حيث يوجه خطاه ، فإما أن يمضي به على مسار دربه الأول ، الذي يلوح له مسدودا أو يكاد . وإما أن يأخذه إلى الاتجاه المضاد ، حيث يلوح الدرب وعْرا غير مطروق ، لا دليل لسارٍ فيه ولا رفيق .

بعد أن يكون سوى حسابه مع نفسه ودنياه ، وبذل جهد المطيق ، ما قصَّر ولا فرط :

تخيرت جهدي لو ملكت خيارا

وطرتُ بعزمي لو أصبت مطارا